مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة البحث العلمي

العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الحادي عشر
ربيع الآخر ١٤٣٠هـ

www.imamu.edu.sa
E.mail : journalimam@yahoo.com

القيم الدلالية لاسم التفضيل (خير) المعرّف بالإضافة في القرآن الكريم

د. عمر عبد المحسن فرح الخزاعلة
مركز اللغات ـ جامعة آل البيت ـ الأردن

ملخص البحث :

يناقش هذا البحث مسألة دلالية تتمثل في استخدام اسم التفضيل (خير) المعرف بالإضافة في القرآن الكريم، وارتأى الباحث أن يكون البحث في ثلاثة أقسام : أولها بعنوان اسم التفضيل (خير) بين الاستعمال والقياس. وثانيها مسألة حذف همزة اسم التفضيل (أخْيَر) فصار (خير) على رأي جمهور النحاة . أما ثالثها وآخرها فقد كان لمناقشة اسم التفضيل (خير) المعرّف بالإضافة، مستعرضا مواضعه في القرآن الكريم، ودلالته عند بعض المفسرين والنحاة قديما وحديثا الذين لم يصدروا – فيما أرى - في تفسيرهم وشروحهم عن ضوابط محددة، الأمر الذي حفزني لمناقشة استعمالات هذه الصيغة من أجل تصنيفها ومحاولة ربطها بدلالاتها وفق السياقات اللغوية التي وردت فيها . وانتهى الباحث إلى أن دلالة (خير) المعرف بالإضافة مختلفة عن دلالة (أخْير) بتضمنها كل الصفات الإيجابية، وعن دلالة التجنيس بين المتضايفين نحو : (أرحم الراحمين، أحكم الحاكمين...)، وأن (خير) هو الأصل، أما (أخْير) فصورة متطورة عن الأصل، كما يقترح الباحث إطلاق مصطلح (اسم التفضيل الوصفي، أو الوصف التفضيلي المشبه) على اسم التفضيل (خير) لتضمنه الصفة المشبهة علاوة على التفضيل.

*** اسم التفضيل (خير) بين الاستعمال والقياس عند النحاة:**

الأصل في اسم التفضيل أن يأتي على وزن (أفعل)، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٢)، وقلما نجد مؤلَّفاً مختصاً بعلوم العربية من لغة ونحو وصرف يفتقر إلى الحديث عن اسم التفضيل: تعريفه وأركانه، وشروط صياغته، وحالاته التي يجيء عليها، فقد عرّفه مؤلفوها، وقننوا صياغته، وحددوا أركانه وضبطوا حالاته، بدءاً من مصنفات السلف وانتهاءً بالمؤلفات المتجددة المعاصرة، ولا مجال لذكرها كلها في هذا البحث.

لقد ذكر ابن يعيش أن اسم التفضيل يأتي على ضربين، أولهما: أن يكون مضافاً إلى جماعة هو بعضهم، وتزيد صفته على صفتهم، وجميعهم مشتركون في الصفة. والضرب الآخر هو أن اشتراط الاشتراك في الصفة لا يلزمه(٣)، مما يعني عدم اتصاف طرفي المقارنة بصفة معينة، وقد يكون ما يسمى بالمفضل عليه غير محتوٍ على أية صفة، نحو: صبْرٌ على الطاعات خيرٌ من لظى جهنم، بمعنى أن لظى جهنم لا خير فيه، ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ (٤)، فالزنا ليس محبباً -ألبتة- ليوسف، والزنا ليس محبباً في أصله ووضعه، ومن ذلك قولهم: الصيف أحر من الشتاء، أي: أبلغ في حرّه من الشتاء في برده.

---

(١) التين /٨ .

(٢) الكهف / ٣٤.

(٣) شرح المفصل - ابن يعيش، ٥/٣.

(٤) يوسف / ٣٣.

أما صياغة اسم التفضيل فهو على (أفعل)، وقد شذ عن هذا القياس بعض الأسماء، نحو: خيْر، شرّ، حَبّ، التي تفيد التفضيل وأصلها: أخْيَر، أشَرّ، أحَبّ على الترتيب، كما يرى أهل اللغة أن (أخْير) أصل (خير) وهو نقيض ما اجتهدْتُ فيه من أن (خير) أصل (أخْير) كما سيأتي لاحقا.

ومما ورد على الأصل من هذه الأسماء قوله عليه الصلاة والسلام: "فقال بل أنت أبرُّهم وأخْيَرُهم"[(١)] وقوله عليه السلام: "وكان أخْيَرَ الناس للمساكين جعفرُ بن أبي طالب"[(٢)].

وأشار إبراهيم السامرائي إلى اسم التفضيل (خير)، فقال: ولم يؤثر في القراءات ولا في كتب العربية شيء من الأصل وهو (أخْيَر – أشرّ) إلا ما ورد في نقض أبي جعفر الإسكافي للعثمانية، فقد قيل: خطب مروان، والحسن - عليه السلام- جالس، فنال من علي – عليه السلام- فقال الحسن: ويلك يا مروان: أهذا الذي تشتمه أشرّ الناس، قال: لا، ولكن خير الناس..."[(٣)].

واستدرك عليه شعبان صلاح في استعمال (خير) و(شرّ) اسمي تفضيل على الأصل (أخْيَر) و(أشَرّ)، قائلاً: وقد يستعمل (خير) و(شر) و(حب) على الأصل، كقراءة بعضهم، مَنِ الكذّابِ الأشَرّ" ونحو: بلال خير الناس وابن الأخْيَر، وعزا حذف الهمزة من هذه الأسماء إلى كثرة الاستعمال بقوله "ولم يشذ عن وزن (أفعل) غير (شرّ) و (خير) لكثرة الاستعمال، وقد يعامل معاملتهما في ذلك (حبّ) كقوله:

وحَبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنِعا ...[(٤)].

(١) صحيح مسلم – الإمام مسلم، كتاب الأشربة، رقم الحديث٥٣٦٦، ص٩٢٠.

(٢) صحيح البخاري – الإمام البخاري، فضائل الصحابة، رقم الحديث ٣٧٠٨، ص٥٠٦.

(٣) من أساليب القرآن – إبراهيم السامرائي، ص٨٦.

(٤) أبنية المشتقات ووظائفها في شعر الأعشى – صلاح شعبان، ص٣٤.

وبيّن علي الحمد أن (خيرّ) أفعل تفضيل، حذفت همزته لكثرة الاستعمال، حذفاً شاذاً... وقد أجاز بعضهم إرجاع الهمزة عند الاستعمال، كما اعتبرها بعضهم اسماً جامداً لا فعل له، ومجيء التفضيل منه شاذ، ومثلهما كلمتا: شرّ وحبّ، وإذا أريد به مجرد الاسم أعرب حسب موقعه، ولم يفد التفضيل، نحو: الخير أن تبتعد عن الشر" (١).

ومما ورد من استعمال اسمي التفضيل (خير) و(شر) على غير الأصل- وهو الأكثر- قوله تعالى: ﴿... فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (٣)، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه"(٤).

ومن هنا فإن مجيء اسم التفضيل على صورة (خير) أكثر منه على (أخْير)، ويمكن أن يعد ذلك من باب التطور الذي يلحق بالصيغ، بحذفٍ كان أو بزيادة لكثرة الاستعمال وطلبا للتخفيف، وهذا ما جاء في كتب النحاة وتعارفوا عليه.

*** دلالة اسم التفضيل (خير) في المصنفات:**

لم تشر المؤلفات النحوية والصرفية إلى اسم التفضيل (خير) بما يظهر دلالته وخصوصيته، ولم يكن هناك سوى إشارات عابرة من حيث ضم الباب النحوي أو الصرفي، والتئام عناصره وأركانه.

فقد أشار سيبويه إلى اسم التفضيل (خير) عند حديثه عن مجرى الأسماء التي لا تكون صفة، فقال: "وذلك أفْعَل منه ومثلك وأخواتهما... وافعل شيء

(١) المعجم الوافي في النحو العربي – علي الحمد ويوسف الزعبي، ص١٥٧.

(٢) (يوسف/ ٦٤).

(٣) الفرقان / ٣٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن ٢١.

نحو: خير شيء وأفضل شيء وأفْعَلُ ما يكون، وأفْعَلُ منك"[1] وذكره المبرد في بيان قولهم (مررت برجل خير منك أبوه) وإعرابه[2]، وقولهم (مررت برجل خير ما يكون خير منك ما تكون) على إضمار (إذ كان) و(إذا كان)[3]، ونَصّ ابن يعيش على أنه إذا نقص اسم التفضيل عن وزن الفعل (أفْعَل) دخله التنوين نحو (خير، شرّ)"[4].

ولم يشر ابن عقيل إلى أية دلالة لاسم التفضيل (خير)، فجاء ذكره إياه عند حديثه عن تقديم (مِنْ) على اسم التفضيل إذا جاءت في صيغة استفهام: مِمَّن أنت خيرٌ؟[5] وفي حاشية شرح ابن عقيل بيّن المحقق الشيخ قاسم الرفاعي أن التفضيل في الاصطلاح صار اسماً لكل ما دل على الزيادة تفضيلاً كانت كأحسن أو تنقيصاً كأقبح، وإن لم يكن على وزن أفعل، كخير وشر فلا اعتراض[6].

والحال نفسه عند ابن هشام، فقد ذكر اسم التفضيل (خير) الوارد في قوله تعالى: ﴿ والآخرة خير وأبقى﴾[7]، عند حديثه عن حذف حرف الجر (مِن)[8].

إن كل ما سبق ذكره في كتب التراث لا يختلف عما جاءت به الكتب المعاصرة، وليس أدل على ذلك من كتاب حديث النشر ألّفه خضر موسى وخصّص جزءاً

---

(١) (الكتاب ٢/ ٢٤).

(٢) المقتضب – المبرد، ج٣/ص٢٤٨.

(٣) المصدر السابق ج٣/ص٢٥٠.

(٤) شرح المفصل ج٣/ص٤.

(٥) شرح ابن عقيل – ابن عقيل ج٢/ ص١٨٩.

(٦) المصدر السابق، ج٢/ص١٨٩.

(٧) الأعلى/١٧.

(٨) أوضح المسالك – ابن هشام ٣ / ٢١٢، ٢٢٢.

كبيراً منه للحديث عن اسم التفضيل (خير)، ولكنه لم يأت بجديد عما ألفناه في كتب العربية ذات الاختصاص: قديمها وحديثها[1].

والذي يعنينا من ذكر ما سبق هو أن اسم التفضيل (خير) لم يحظ بعناية أهل اللغة، ولم تتحصل دلالته التي يمتاز بها ولا خصوصيته التي تكونت من مواضعه في أفصح كلام العربية، ونعني لغة القرآن الكريم الشريفة.

*** مسألة حذف همزة اسم التفضيل (خير):**

أجمع اللغويون على أن اسم التفضيل (خير) أصله (أخير) وأن همزته قد حذفت لكثرة استعماله ودورانه على الألسنة، واستعملت الصيغتان في فصيح كلام العرب.

إن هذا التعليل لحذف همزة (خير) يعدّ من اجتهادات النحاة ، لأنهم وجدوا أسماء التفضيل الأخرى قد جاءت على وزن (أفعل) التفضيل، فلما شذّت (خير) و(شرّ)و(حبّ) عن هذا الوزن قالوا بحذف همزاتها، وهذا الذي قالوا به كان مما يعللون ما شذّ عن القياس، والشواهد على ذلك كثيرة لا حصر لها وهي منثورة في مصنفاتهم لا حاجة لذكرها هنا ؛ ولأنّ من غاية المتخصص التخريج والتعليل جاء قولهم بحذف همزة اسم التفضيل (أخير) لكثرة استعماله، فأصبح (خير) ومثله (شرّ) و(حبّ).

إن قولهم بحذف الهمزة من (أخير) قد يدخله اجتهاد آخر إذا ما نظرنا في استعمال الصيغتين (أخير) و (خير) في فصيح اللغة، إذ وردت الصيغتان في سياقات مختلفة، منها انفراد كل منهما بالاستعمال في سياق خاص، ومنها

(١) أفعل التفضيل وأحسن التمثيل في محكم التنزيل – خضر موسى، ص ص٤٢- ٧٤.

اجتماعهما معا في السياق نفسه ، وهذا الاجتماع يعني مباشرة انفراد كل منهما بدلالة تختلف عن الأخرى ، وإلا لجاءت الصيغة بصورة واحدة لا بصورتين مجتمعتين ، وهذا ما سنتتبعه في بعض مواضع ورودهما مما جاء في كتب اللغة والنحو والتفسير والشعر :

(بلال خير الناس وابن الأخير) [١]

إن إسناد اسم التفضيل (خير) إلى بلال تفوق نسبة (الأخير) إلى أبيه ، إذا ما علمنا أن بلالا قد قدّم للإسلام ما لم يقدّمْه أبوه ، فكان يستحق الثناء أكثر من أبيه ، ولا يجوز العكس مطلقا ، سواء أدخل أبوه الإسلام أم لم يدخله ، وإنما جاء اسم التفضيل (أخير) منسوبا إلى أبي بلال لإظهار صفة خيرية واحدة من الخير الشامل ، وهذه الصفة قد تكون لسبب أبوّته لبلال ونسبه ، أما (خير) مسندة إلى بلال فلأنه قدّم ما قدّم للإسلام من تضحيات لم تكن لأبيه بحال. ولذلك كانت لاسم التفضيل (خير) دلالة شاملة جامعة لا ترتقي إليها دلالة (أخير).

أهذا الذي تشتمه أشرّ الناس؟ قال : لا ، ولكن خير الناس [٢]

جاء استعمال اسم التفضيل (أشرّ) على لسان الحسن بن علي رضي الله عنهما في ردّه على معاوية ، وفيه تأدب الابن مع أبيه ، فهو لا يريد له ولو صفة واحدة من الشر ، فهو يستنكر ، فالمعنى ليس فيه شيء من جوانب الشر بدليل الاستنكار ، أما اللفظ فإن دل على شيء من الشر فهو باستعمال (أشرّ) وليس (شرّ) الموغلة في الشرّ أكثر من (أشرّ) . ويقوّي من ذلك ردّ معاوية – بحنكته ودهائه - على الحسن ، الذي أراد منه استرضاء الحسن واستمالته ، ونفي شتمه

(١) تفسير البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ج٨/ص١٨٠.

(٢)من أساليب القرآن ، إبراهيم السامرائي ، ص٨٦.

لأبيه ألبتة، فقال : ولكن خير الناس. أي هو جامع لجوانب الخير كافة، لا جانب واحد منه، وإلا لاستعمل اسم التفضيل (أخْير) قياسا على استعمال اسم التفضيل (أشرّ) الوارد في النص نفسه.

(فقال بل أنت أبرّهم وأخيرهم)[1]

جاء استعمال اسم التفضيل (أبرّ) أولا، ثم عطف عليه اسم التفضيل (أخيرهم)، وهذا يعني أن صفة التفضيل الإيجابية (البرّ) ليست متضمنة في اسم التفضيل (أخير)، ولو كانت دلالة (أخير) شاملة جامعة لاحتوت ضمنا على صفة (البرّ)، ولاستغني عن استعمال (أبرّهم)، لأن المقام كان يتضمن البرّ وإن لم يُصَرّح به لفظا.

(قالوا : أعْلَمُنا وابنُ أعلمِنا، وأخْيَرُنا وابنُ أخْيَرِنا)[2]

لقد جاء استعمال اسم التفضيل في هذا الحديث ليدلّ على أن المفضل – وهو الابن – برتبة المفضل عليه – وهو الأب – بعد العطف، وهذا يخالف ما جاء سابقا بأن بلالا خير الناس وابن الأخير، إذ لا ترتقي صفة (الأخير) إلى رتبة (خير الناس) بحال. ولتأكيد تلك المساواة في رتبة التفضيل جاء قوله عليه الصلاة والسلام : وأخيرنا وابن أخيرنا، للدلالة على أنهما متساويان في صفة خيرية واحدة غير صفة العِلْم المذكورة أولا.

إن النظر فيما سبق يستدعي القول بأن (أخْير) ليست (خير)، وبأن (خير) اسم تفضيل شامل جامع للصفات الإيجابية كلها، أما (أخْير) فاسم تفضيل دال على صفة خيرية واحدة تتعلق بالمقام الذي قيلت فيه، لذلك فإن العرب لما فاضلت في

(١)صحيح مسلم، كتاب الأشربة، حديث رقم ٥٣٦٦، ص٩٢٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم ٣٣٢٩، ص٤٥٠.

لغتها جعلت المفاضلة في ما يتفاوت فيه الناس سلبا وإيجابا، فقالوا : زيد أكرم الناس وعمرو أبخل الناس، ولكنهم لما أرادوا أن يجمعوا كل ما يتفاضل به الناس في الإيجاب قالوا : زيد خير الناس. ولما أرادوا أن يجمعوا كل ما يتفاضل به الناس في السلب قالوا : عمرو شرّ الناس.

أما (أخْير) فاسم تفضيل لا يختلف عن أسماء التفضيل الأخرى التي جاءت على (أفعل) نحو : أعْلَم وأسْرَع و ....إلخ، وهو لا يتضمن شمولية (خير)، ونستطيع تحديد الصفة الواحدة في (أخْير) من السياق الذي وردت فيه ، وهذه الشمولية للصفات الإيجابية كافة مدعاة إلى أن يكون اسم التفضيل (خير) متضمنا الصفة المشبهة ، مما يجيز له أن يكون اسم تفضيل وصفيا، أو وصف تفضيل مشبها ؛ لأن معنى (خير) في نحو : زيد خير الناس، لا يقف في هذه الجملة عند التفضيل حسب، بل يمتد إلى الوصف المشبه الذي يحتوي ثبوتا للصفة في من اتصف بها وديمومة فيه.

ومما يضعّف القول بحذف الهمزة من (أخير) إلى (خير) أن هناك أسماء تفضيل كثيرة الاستعمال والدوران على الألسنة، ولم يلحقها تغيير في بنيتها من حذف همزاتها نحو : أكْبَر وأحْسَن وأفْضَل، زيادة على أن هناك أسماء التفضيل التي يؤتى بها للمفاضلة في الأفعال غير الثلاثية وغير التامة، وتلك التي يكون الوصف منها على (أفعل- فعلاء)، نحو : أشَدّ وأكْثَر، فهذه دارجة في الاستعمال كثيرا ولم يلحقها الحذف، كما هو الحال في (خير) على رأي أهل اللغة القدماء والمحدثين، مما يحملنا على القول بأن اسم التفضيل (خير) هو الأصل، و(أخير) صورة معدولة عنه، والدليل على ذلك أنهم لما رأوا أن من حالات اسم التفضيل ما يكون معرّفا بدالة التعريف، نحو : الأكْبر والأسْرع .... ، لم يستطيعوا إلحاق دالة التعريف هذه باسم التفضيل (خير) لأن دلالة التفضيل تنتفي عن الاسم

(خير) بإلصاق (أل) التعريف به، مما تخرجه من باب التفضيل كله، أو تُحْدث فيه لبسا مع المشتقات الأخرى والأسماء، فلجأوا إلى إلصاق همزة (أفعل) بـ (خير)، فأصبحت (أخير)، قياسا على وزن (أفعل)، ليتمكنوا من إلحاق دالة التعريف بـ (أخير)، فتصبح (الأخْيَـر)، ويؤيد ذلك ما صرّح به المبرد في المقتضب بقوله : "فمن لم يقل : هذا خيرٌ من زيد، قال : هذا الأخيرُ قد جاء، وهذا الأفضلُ، وما أشبهه، ومن لم يقل : يا أفْضَلَ من زيد، قال : يا أفضلُ أقْبِلْ، على معنى : يا أيها الأفْضَلُ، فعلى هذا يجري (أفْعَل) الذي معه (من كذا) "(١) .

فجاءت هذه الصورة المعدولة (أخير) من الأصل (خير)، والتغيير الذي يلحق بصيغة ما يكون لدلالة لا تكون نفسها للصيغة الأصلية، وهذا ما جعل استعمال (الأخْيَر) نادرا في العربية، كما نص على ذلك أبو حيان الأندلسي بقوله : " وقال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأخير والأشرّ إلا في ضرورة الشعر... "(٢) .

*** اسم التفضيل (خير) في القرآن الكريم :**

ورد اسم التفضيل (خير) في القرآن الكريم على الشذوذ في استعماله، لا على الأصل (أخْيَر) في قياسه، وجاء استعمال هذا الاسم على الأنماط التركيبية الآتية :

١ - (المفضل + اسم التفضيل (خير) نكرة غير مخصصة بإضافة + حرف الجر (من) + المفضل عليه). نحو قوله تعالى : ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٣)

٢ - (المفضل + اسم التفضيل (خير) نكرة غير مخصصة بإضافة – (حرف الجر (من) + المفضل عليه). نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾(٤).

(١) المقتضب – المبرد، ٤/٢٢٦.

(٢) تفسير البحر المحيط – أبو حيان الأندلسي، ٨/١٨٠.

(٣) آل عمران / ١٥٧.

(٤) طه / ٧٣.

٣- (المفضل + اسم التفضيل (خير) نكرة مخصصة بإضافة + المفضل عليه).
نحو قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(١).

٤- (المفضل + اسم التفضيل (خير) المضاف + المفضل عليه معرفة).

وجاء هذا النمط التركيبي على صورتين:

أ- أن يكون المفضل مختصاً بجلال الله تعالى: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٢).

ب- أن يكون المفضل مختصاً بغير جلال الله تعالى: ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾(٣).

والذي يعنينا في التحليل هو النمط التركيبي الرابع بالصورة (أ) التي يكون فيها المفصل مختصاً بجلال الله تعالى، ومنه يمكن تعميم النتائج على بقية الأنماط التركيبية.

*** المفضل (مختصاً بجلال الله تعالى) + اسم التفضيل (خير) مضافاً + المفضل عليه مضافاً إلى معرفة**

أ- شواهده في القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٤).

٢- قال تعالى: ﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٥).

٣- قال تعالى: ﴿... فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾(٦).

---

(١) آل عمران/ ١١٠.

(٢) المائدة/ ١١٤.

(٣) البينة /٧.

(٤) آل عمران/ ٥٤.

(٥) الأنفال / ٣٠.

(٦) الأعراف / ٨٧.

٤- قال تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (١).

٥- قال تعالى : ﴿ .. فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (٢).

٦- قال تعالى : ﴿... يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (٣).

٧- قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (٤).

٨- قال تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ (٥).

٩- قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ (٦).

١٠- قال تعالى : ﴿... رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ (٧).

١١- قال تعالى : ﴿ .. أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ (٨).

١٢- قال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (٩).

١٣- قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ (١٠).

---

(١) يونس / ١٠٩.

(٢) يوسف / ٨٠.

(٣) المؤمنون/ ١٠٩.

(٤) المؤمنون / ١١٨

(٥) آل عمران/ ١٥٠.

(٦) الأنعام/ ٥٧.

(٧) الأعراف / ٨٩.

(٨) الأعراف / ١٥٥.

(٩) الأنبياء / ٨٩.

(١٠) المؤمنون / ٢٩.

١٤- قال تعالى: ﴿... وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[١] .

١٥- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٢] .

١٦- قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٣] .

١٧- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٤] .

١٨- قال تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٥] .

ب- دلالته عند المفسرين:

تفاوت المفسرون في تحديد دلالة اسم التفضيل (خير) في هذا النمط التركيبي، فمنهم من كان مسهباً في موضع ومقلاً في آخر، وكثيراً ما كان يتم إغفال مواضع عدة، ومهما يكن من أمر فإن هذا التفاوت في تحليل هذا النمط ليس بذي ضرر إذا ما قيس بالتباين الذي تأتى من تفسيرهم، لأنهم نظروا إلى استعمال هذا النمط في الآية الواحدة بعينها دون ربط شمولي للنمط نفسه في الآيات مجتمعة من الباب نفسه، وهذا ما نتلمسه من تفسيرهم لهذه الآيات.

ففي قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[٦]. ذكر ابن منظور أن المكر في اللغة هو الاحتيال في خُفْية، وهو الخديعة وإيقاع البلاء في الأعداء دون الأولياء[٧] ، وهو السعي بالفساد في مداجاة[٨] ، وأورد القرطبي في

---

(١) المائدة / ١١٤.

(٢) الحج / ٥٨.

(٣) المؤمنون / ٧٢.

(٤) سبأ / ٣٩.

(٥) الجمعة / ١١.

(٦) آل عمران / ٥٤.

(٧) انظر: لسان العرب- ابن منظور، مادة (مكر).

(٨) تفسير الرازي – الفخر الرازي، ٧٣/٤.

الجامع لأحكام القرآن أن بعض العلماء قد عد (ماكر) في أسماء الله تعالى فيدعى به: يا خير الماكرين، أمكر لي[1].

وأثبت أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط أقوالاً تذهب إلى تأويل كلمة (الماكر) وعلاقتها بجلال الله تعالى وتخريجها، فذكر أن المكر هو لطف التدبير، وهو قبيح، وإنما جاز في صفة الله تعالى على مزاوجة الكلام، وهو احتيال في إيصال الشر وذلك غير ممتنع، إلى غير ذلك من الأقوال[2].

وفي حين ذكر الشوكاني أن ﴿خير الماكرين﴾ جاءت بمعنى أن الله أقواهم مكراً، وأنفذهم كيداً، وأقواهم على إيصال الضرر بمن يريد إيصاله به من حيث لا يحتسب[3]

ولم يخرج سيد قطب بعيداً عما ذكره السلف، فذهب إلى أن المشاكلة في اللفظ هي وحدها التي تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله... والمكر التدبير.. ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذي يواجهه هو تدبير الله، فأين هم من الله؟ وأين مكرهم من تدبير الله"[4]

وفي الآية الأخرى التي ورد فيها التركيب الإضافي ﴿خير الماكرين﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[5]، أجاب الرازي في تفسيره عن كيفية القول بـ ﴿والله خير الماكرين﴾ بالرغم من عدمية الخير في مكرهم، بقوله: "قلنا: فيه وجوه: أحدها أن يكون المراد أقوى الماكرين، فوضع (خير) موضع أقوى وأشد، لينبه بذلك على أن كل مكر فهو يبطل في مقابلته فعل الله

(١)الجامع لأحكام القرآن – القرطبي ٢/ ٩٩.

(٢)تفسير البحر المحيط – أبو حيان الأندلسي ٢/ ٤٩٦.

(٣) فتح القدير – الشوكاني ١/ ٢٨١.

(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب، ١/ ٤٠٣.

(٥) الأنفال / ٣٠.

تعالى، وثانيها: أن يكون المراد خير الماكرين لو قدر في مكرهم ما يكون خيراً وحسناً، وثالثها: أن يكون المراد من قوله ﴿خير الماكرين﴾ ليس هو التفضيل..."[1]

واتفق القرطبي والشوكاني على أن المكر من الله تعالى هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون[2] فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاءً من مكرهم[3].

إن المتتبع لأقوال المفسرين يرى التفاوت واضحاً بينهم في تحديد دلالة التفضيل في الآيتين السابقتين، فالقرطبي نقل رأي بعض العلماء في أن (ماكر) من أسماء الله التي يدعى بها، وأثبت أبو حيان الأندلسي الآراء التي تؤوِّل هذه الصفة، وخرّج الشوكاني دلالة (خير) بأقوى وأنفذ، وخصّ سيد قطب المكر بالتدبير.

ولو تتبعنا تفسير الآيات الكريمة التي تضمنت اسم التفضيل (خير) مضافاً إلى المفضل (الرازقين) وعددها خمس آيات، لوجدناه يختص بمعاني المفضل عليه (الرازقين) دون مراعاة كاملة لدلالة اسم التفضيل (خير) نفسه، وهو مجال هذا البحث.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[4]، ذهب المفسرون إلى أن الله تعالى خير من أعطى ورزق[5]. وأنه لا رازق في الحقيقة غيره ولا معطي سواه[6] كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[7]. فقد أكد الرازي

(١) تفسير الرازي، ٨/ ١٦٠- ١٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ٤/٣٩٧.

(٣) فتح القدير - الشوكاني ١/٦٨٣.

(٤) المائدة / ١١٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ٣/٣٦٨.

(٦) فتح القدير - الشوكاني ١/٥١٥.

(٧) الحج / ٥٨.

أن الله تعالى يرزق والناس يَرْزُقون، ولكنه يرزق أشياء لا يقدرون عليها، وأنما يجري رزقه على أيديهم، وهم واسطة في ذلك، كما أن المرزوق يكون تحت منة الرازق، ومنة الله تعالى أسهل تحملاً من منّة الغير، ولكل ما سبق ثبت أنه سبحانه خير الرازقين[1] ، ونص أبو حيان الأندلسي : "والظاهر أن ﴿خير الرازقين﴾ أفعل تفضيل والتفاوت أنه تعالى مختص بأنه يرزق ما لا يقدر عليه غيره تعالى، وبأنه الأصل في الرزق، وغيره إنما يرزق بما له من الرازق من جهة الله"[2] وذهب الشوكاني المذهب نفسه[3]

وتتوضح دلالة اسم التفضيل (خير) المضاف إلى المفضل عليه (الرازقين) في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [4]. بما جاء في تفسير الرازي: "... إن أحداً من العباد لا يقدر على مثل نعمه تعالى ورزقه ولا يساويه في الإفضال على عباده، ودل أيضاً على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضاً، ولولا ذلك لما جاز أن يقول ﴿وهو خير الرازقين﴾"[5].

وتتضح هذه الدلالة في قول الرازي إن اسم التفضيل (خير) قد لا يعني اشتراك المفضل (الله تعالى) والمفضل عليه (الرازقين) في صفة مشتركة بينهما، يزيد فيها المفضل على المفضل عليه، وهذه الدلالة تضطرب في موضع آخر عند تفسير الرازي نفسه لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [6]

(١) تفسير الرازي – الرازي، ١٢/ ٥٨- ٥٩ .

(٢) تفسيرالبحر المحيط – أبو حيان الأندلسي ٣٥٤/٦.

(٣) فتح القدير - الشوكاني ١٦١/٢.

(٤) المؤمنون ٧٢.

(٥) تفسير الرازي – الرازي ١١٣/١٢.

(٦) سبأ / ٣٩.

إذ إنه يجيب عن مسألة ﴿خير الرازقين﴾ في هذه الآية التي تنبئ عن كثرة في الرازقين، ولا رازق إلا الله، فذهب إلى أن (الرازقين) بمعنى الذين تظنونهم رازقين، وأن العبد إذا أعطى غيره شيئاً فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء سمي معطياً[1].

لقد صرح الرازي في تفسيره لاسم التفضيل ﴿خير الرازقين﴾ في الآية ٥٨ من سورة الحج أن اسم التفضيل (خير) يعني اشتراك طرفي التفضيل بالصفة الواحدة وهي الرزق، ولكنه عاد في الآية ٣٩ من سورة سبأ ونفى هذه الصفة عن المفضل عليه (الرازقين)، وجعلهم بمنزلة (المعطين) والفرق شاسع بين الرزق والعطاء، فالرزق هو الإعطاء الأول من الله تعالى، أما العطاء فهو مرحلة تالية، قد يجري على يد العباد، وهذا ما أكده أبو حيان الأندلسي بقوله: "والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى، ومن إخراج من عدم إلى وجود"[2]. أما الشوكاني فقد أخذ دلالة (الرازقين) على المجاز لا على الحقيقة[3]. أما ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[4] فقد جاء قوله (ارزقوهم) بمعنى اجعلوا لهم فيها أو أفرضوا لهم فيها، وهذا فيمن يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجته وبنيه الأصاغر[5] وهذا ما أكده الطبري بقوله: "وأنفقوا على سفهائكم من أولادكم ونسائكم الذين تجب عليكم نفقتهم من طعامهم وكسوتهم في أموالكم .... "[6].

(١) المصدر السابق – الرازي ٢٦٥/١٣.

(٢) تفسيرالبحر المحيط – أبو حيان الأندلسي ٢٧٣/٧ .

(٣) فتح القدير - الشوكاني ٤٥٤/٢.

(٤) النساء /٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي ٣٢/٣ .

(٦) تفسير الطبري ٥٧٢/٧.

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ [(١)] فقد جاء قوله (فارزقوهم) بمعنى أكرموهم ولا تحرموهم إن كان المال كثيرا، والاعتذار إليهم إن كان عقارا أو قليلا لا يقبل الرضْخ "[(٢)] وهذا يعني أنه يمكن الاعتذار عن تقديم العطاء، ولذلك لا يكون هناك رزق بمعنى الرزق الذي يكون من الله، إذ يرى محمد بن سيرين وعبيدة أن الرزق في هذه الآية هو أن يصنع لهم طعام يأكلونه[(٣)] ، فيما ذكر الطبري أن معنى (ارزقوهم) أوصوا لهم[(٤)] وأعطوهم أو أطعموهم[(٥)].

يتضح لنا مما سبق أن اسم التفضيل (خير) قد تفاوتت دلالته ولم تستقر في التركيب نفسه في آيات مختلفة، فتارة يدل التركيب –حسب رأي المفسرين- على اشتراك طرفي التفضيل في صفة واحدة، زاد المفضل فيها على المفضل عليه، وتارة يدل على انتفاء الصفة عن المفضل عليه، دون النظر إلى خصوصية اسم التفضيل (خير)؛ إذ كان النظر يتجه إلى المفضل والمفضل إليه ومدى اشتراكهما أو عدمه في صفة المفاضلة، وما جرى على الآيات السابقة يجري على بقية الآيات الكريمة التي تضمنت التركيب نفسه في مجيء اسم التفضيل (خير) مضافاً إلى المفضل عليه، وهي : خير الناصرين، خير الفاصلين، خير الغافرين، خير الوارثين، خير المنزلين، وخير الفاتحين، زيادة على ما تم بيانه من (خير الماكرين، وخير

(١) النساء/٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ٣/٤٨.

(٣) المصدر السابق ٣/٥٠.

(٤) تفسير الطبري ٨/١١.

(٥) المصدر السابق ٨/١٨.

الرازقين)، إذ اختصّت هذه الآيات بوجود اسم التفضيل (خير) دون غيره من أسماء التفضيل الأخرى التي من جنس المفضل عليه (المضاف إليه)، نحو: (أرحم الراحمين – أحكم الحاكمين).

وبالنظر إلى ما سبق فإن ثمة ملاحظتين تسترعيان الانتباه أولاهما: أن اضطراباً قد طال دلالة اسم التفضيل (خير)، مما حدا بالمفسرين إلى التأويل واستدعاء المعاني للوصول إلى دلالات هذا الاسم، وعلى الرغم من اجتهاداتهم التي لا تنكر إلا أن تقنين دلالة اسم التفضيل (خير) في القرآن الكريم ظل غائبا ولم يتم تحديد دلالته بصورة شاملة تتضمن كل هذه الدلالات. والملاحظة الثانية هي أن المفضل عليه لم يأت مسبوقاً باسم التفضيل من جنسه، ولم يقترن إلا باسم التفضيل (خير) دون غيره، فلا نجد: أرزق الرازقين، افتح الفاتحين، أنصر الناصرين، أفصل الفاصلين، أغفر الغافرين، أورث الوارثين، على الرغم من أن هذا التجانس بين المتضايفين (اسم التفضيل + المفضل إليه)، قد يعطي تأكيداً آخر، ودلالة ثانية لاسم التفضيل.

إن الإجابة عن الملاحظة الأولى سترد في ثنايا البحث، أما الملاحظة الثانية فتقودنا إلى النظر في الآيات الكريمة التي تضمنت النمط التركيبي مدار البحث، وتراوح بين استعمالين: أحدهما: يكون فيه اسم التفضيل هو (خير)، والآخر: يكون فيه اسم التفضيل على وزن (أفعل) من جنس المضاف إليه وهو المفضل عليه، وهذان الاستعمالان جاءا على النحو الآتي: (خير الراحمين، وأرحم الراحمين)، (خير الحاكمين وأحكم الحاكمين).

لقد ورد تركيب (خير الراحمين) في آيتين هما: الآية ١٠٩ من سورة "المؤمنون" والآية ١١٨ من السورة نفسها. وورد تركيب (أرحم الراحمين) في أربع آيات: (الأعراف / ١٥١) و (يوسف / ٦٤) و (يوسف / ٩٢) و (الأنبياء / ٨٣).

أما (خير الحاكمين) فقد جاء في ثلاث آيات هي :الآية ١٠٩ من سورة يونس ، والآية ٨٠ من سورة يوسف ، والآية ٨٧ من سورة الأعراف ، في حين ورد (أحكم الحاكمين) في آيتين : (هود / ٤٥) و(التين / ٨).

إن هذا التنوع في استعمال اسم التفضيل يتميز بدلالات مختلفة يمكن تصنيفها وتحديدها بمعايير تنبئ عن فصاحة التركيب ، وجودة الاستعمال اللغوي ، لذلك فإنه لا بد من الاطلاع على الصفة التي تجمع طرفي التفضيل ، وما وافقها من أسماء التفضيل باستعمال (خير) أو اسم تفضيل على وزن (أفعل) من جنس المفضل عليه نحو: أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وهل هذه الصفة التي تجمع بين طرفي التفضيل تختص بالمفضل أو بالمفضل عليه أو بكليهما معاً في الآيات القرآنية التي تضمنت هذا النمط التركيبي؟ إذ يمكننا تلمس هذه الفروق من آيات القرآن الأخرى .

- **صفة المكر:**

وتأتي هذه الصفة لله تعالى وللإنسان ، فالمكر هو نوع راقٍ من الأفعال والأعمال ، والله تعالى عنده حسن التدبير ، وما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (1) إنما هو للتشابه بين تدبيره تعالى وتدابيرهم ، والمكر نوعان : مكر حسن ، فيه الخير من مدبّره إلى من يقع عليهم ، لأنه منع مكرهم الذي فيه الشرّ من التحقق والحدوث ، ومكر سيء ذكره تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (2) ، ولهذا اختصت هذه الصفة بطرفي التفضيل معا.

---

(١) آل عمران / ٥٤.

(٢) فاطر/٤٣.

- **صفة الغفران:**

وتختص هذه الصفة بالله وحده دون الإنسان، وما جاء بلفظ المغفرة للإنسان إنما على معنى الصفح والتسامح، ونستدل بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1] .

- **صفة النصر:**

تختص بالله تعالى وحده، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[2] .

- **صفة الرزق:**

وتختص بالله تعالى وحدة بدليل ما سبق من تحليل للآيات التي ورد فيها قوله تعالى ﴿ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

- **صفة الوراثة:**

وتختص بالله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[3] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[4].

- **صفة الفتح:**

تختص بالله تعالى من قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾[5] .

- **صفة الفصل:**

وهي لله وحده، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾[6].

---

(١) آل عمران/ ١٣٥.

(٢) آل عمران / ١٢٦.

(٣) القصص/ ٥٨.

(٤) مريم/٤٠.

(٥) الأنفال ١٩.

(٦) النبأ / ١٧.

- صفة الحكم أو الحكمة:

وهذه الصفات تصلح أن تكون لله تعالى وللإنسان، أي لطرفي التفضيل (المفضل والمفضل عليه)، فهي لله من قوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(2).

وهي للإنسان المفضل عليه، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(3)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾(4).

- صفة الرحمة:

وهذه الصفة تصلح أن تكون لله تعالى وللإنسان، أي لطرفي التفضيل (المفضل والمفضل عليه)، إذ إن الله تعالى قد أنزل في الأرض جزءاً من رحمته، فصارت للعباد يتراحمون بها، لقوله عليه الصلاة والسلام: " إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة"(5).

وبعد استعراض الصفات التي تجمع بين طرفي التفضيل في الآيات القرآنية التي تتضمن اسم التفضيل (خير) مضافا إلى المفضل عليه نجد أن الصفات التي تختص بأحد طرفي التفضيل وهوالمفضل، قد جاءت في أسلوب التفضيل مقترنة باسم التفضيل (خير)، وأن الصفات التي تصلح أن تكون من صفات طرفي التفضيل قد جاءت في أسلوب التفضيل نتج عنه التنوع في استعمال اسم التفضيل ما بين (خير)

(1) يوسف / ٤٠.

(2) المائدة / ٥٠.

(3) البقرة / ٢٦٩.

(4) المائدة/ ٤٢.

(5)صحيح مسلم، كتاب التوبة٢٧٥٣/٢٠، رقم الحديث ٦٩٧٥، ص١١٩٣.

و (اسم تفضيل من جنس المفضل عليه، نحو: (خير الحاكمين، وأحكم الحاكمين) و(خير الراحمين وأرحم الراحمين)، عدا صفة المكر التي تصلح لطرفي التفضيل، ولكنها وردت بصورة واحدة (خير الماكرين) مكررة مرتين دون تجانس اسم التفضيل والمفضل عليه (أمكر الماكرين)، لأن الآيات القرآنية نسبت المكر إلى الله تعالى (المفضل) في الآيات الآتية : الأعراف٩٩ و الرعد٤٢ و يونس٢١ والنمل٥٠ .

نستنتج مما سبق أن اسم التفضيل (خير) يأتي في النمط التركيبي الذي يحتوي على صفة لأحد طرفي التفضيل، فيقال: خير الغافرين ولا يقال: أغفر الغافرين، وعلى هذا نقيس، وتمتنع المجانسة بين اسم التفضيل والمفضل عليه في هذه المواضع نحو : أغفر الغافرين... إلخ.

أما النمط التركيبي الذي يحتوي على صفة يشترك فيها طرفا التفضيل، وتصلح لكليهما، فيجوز استعمال اسم التفضيل (خير) أو اسم تفضيل على وزن (أفعل) من جنس المفضل عليه، نحو: (خير الحاكمين وأحكم الحاكمين) و(خير الراحمين وأرحم الراحمين)، لأن صفات الرحمة والحكمة والحكم تصلح لطرفي التفضيل (المفضل والمفضل عليه).

إن ما استقر من خصوصية ودلالة لاسم التفضيل (خير) يأخذنا إلى إيضاح حقيقة هذه الدلالة بتتبع القضايا الآتية :

- التجنيس والإتباع بين اسم التفضيل والمفضل عليه.
- امتناع التجنيس بين اسم التفضيل والمفضل عليه.
- التنوع في اسم التفضيل.
- التضييق والاتساع .

١- التجنيس والإتباع:

يعد التجنيس في اللغة مرحلة مبكرة من مراحلها ، فلا يُحتَاج فيه إلى إعمال الفكر بدرجة كبيرة ؛ لذا فإن كثيراً من العبارات التي ينطقها الإنسان في بداية نطقه يعتمد فيه التجنيس أكثر من المتقابلات أو المتضادات اللغوية ، فالقول بأن فلاناً صادق والآخر غير صادق أسهل من القول بأن فلاناً صادق والآخر كاذب أو كذاب ؛ لذلك جاء الإتباع في اللغة بين الألفاظ المتتالية التي تكون على نسق واحد ، نحو: شذر مذر ، وحيص بيص ، وعفريت نقريت ، وللأحمق الموصوف بالخفة هقّات لقّات ، وللداهي عِقْرية نَقْرية... إلخ ، وإن كانت تحتمل بعض المعاني.

والتجنيس بين اسم التفضيل والمفضل عليه ، نحو (أرحم الراحمين) و(أحكم الحاكمين) لا يقاس على ما جاء في اللغة من أمثلة الإتباع ، فالمجانسة بينهما قد تفيد أن الصفة المشتركة بين طرفي التفضيل تصلح أن تكون لهما معاً ، وفي الآيات الكريمة تصلح للخالق والمخلوق ، كما تم بيانه ، لذا فإن هذا التجنيس في القرآن الكريم لا يجري على ما يجري عليه الإتباع في اللغة" والدليل على ذلك أمران: أولهما: أن التنوع بين اسم التفضيل والمفضل عليه قد جاء أكثر من التجنيس بينهما ، وذلك واضح في الآيات الكريمة التي وردت في هذا الباب ، وثاني الأمرين هو أن المَواطِن التي يأتي فيها التجنيس يصيبها الحذف كثيرا ، ومن هذه المَواطِن حذف المبتدأ ، كما جاء في الآية ١٨ من سورة يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ والمصدر النائب عن فعله ، كقوله تعالى في الآية ٢٨٥ من سورة البقرة : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ... ﴾ والآية ٢٦ من سورة الواقعة : ﴿... إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾.

وفي المقابل لا تخلو الآيات الكريمة من تجنيس قد يقع بين عناصر التركيب وهذا التجنيس يكون للتعميم أو للجمال والتطريب، أو للإيقاع القرآني على الأسماع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ (١) ، وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢) وقوله: ﴿ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ..﴾ (٤) ، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ .. ﴾ (٥).

٢. امتناع التجنيس بين اسم التفضيل والمفضل عليه

إن الاستعمال القرآني لاسم التفضيل محدد بضوابط ومقيدات، فالتجنيس يمتنع في كثير من حالات المفاضلة بين طرفي التفضيل (المفضل والمفضل عليه)؛ إذ يمتنع التجنيس في الصفات التي تكون خاصة بأحد طرفي التفضيل، ولا يجوز – مطلقاً- التجنيس في صفة مختصة بالمفضل وحده (الله تعالى) دون المفضل عليه كما مر سابقاً، نحو: أغفر الغافرين، أو أرزق الرازقين، فهذا يمتنع، فيؤتى باسم تفضيل غير مجانس نحو: خير الغافرين، خير الرازقين ... إلخ.

٣. التنوع في اسم التفضيل :

إن من طبيعة الإنسان كمتلق أو كمبدع أن يميل إلى التنوع واكتشاف الآخر للتمايز والتفاضل، ولعل ذلك واضح من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾ (٦).

(١) المطففين ٢٦.
(٢) يوسف ٦٧.
(٣) هود ٩٨.
(٤) مريم ٥٩.
(٥) يوسف ١٠.
(٦) البقرة / ٦١.

ويعد التنوع مرحلة متقدمة في الاستعمال اللغوي، ففيه يُحتَاج إلى إعمال الفكر والإتيان بالمتضادات، وهي مرحلة ذات فكر راق؛ إذ يبحث العقل عن ألفاظ وتراكيب بعيدة عن التجنيس.

ومن الآيات التي تنوع فيها استعمال اسم التفضيل، تلك التي جاءت متضمنة اسم التفضيل والمفضل عليه على صورتين، الأولى: التجنيس بينهما (أرحم الراحمين) و(أحكم الحاكمين)، والثانية: بلا تجنيس بينهما (خير الراحمين) و(خير الحاكمين)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ (1) ، فمثل هذا التنوع في الاستعمال يكون لصفات المفاضلة التي تصلح أن تكون لطرفي التفضيل نحو: الرحمة والحكم والحكمة.

ومما جاء في القرآن الكريم من هذا الباب -إذا ما نأينا بأنفسنا عن الخوض في قضية الترادف اللغوي- قوله تعالى: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ (2) ، إذ كان بالمقدور المجانسة بين (يأتكم) و(جاءنا) نحو: (ألم يأتكم... قد أتانا) أو (ألم يجئكم ... قد جاءنا).

٤ـ التضييق والاتساع:

يجد المتتبع لاستعمال اسم التفضيل في القرآن الكريم أن هناك بعداً عميقاً في اختيار هذا الاسم، فقد يستعمل للدلالة على التضييق في الصفة المشتركة بين طرفي التفضيل، أو للدلالة على الاتساع فيها بينهما، أو للدلالة على مرحلة متوسطة بين التضييق والاتساع، مما يجعل في المقدور تصنيف هذه الدلالة على النحو الآتي:

---

(١) الأنعام ٦٢.

(٢) الملك /٨- ٩.

أ. التضييق: وتظهر هذه الدلالة في الآيات التي جاءت بالتجنيس بين اسم التفضيل والمفضل عليه، نحو: أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، لأن طرفي التفضيل قد تفاضلا بصفة واحدة لا غير، وهي (الحكمة) أو (الحكم) أو (الرحمة). وهذا التضييق يُظهر استيعاب المفضل لهذه الصفة بكمالها، فلا يستطيع المفضل عليه الرقي إلى كمال الصفة وإن كان متصفاً بها، كصفة الرحمة التي يتراحم بها الإنسان، فهي ليست إلا جزءاً يسيراً من الرحمة التي أدخرها الله تعالى لنفسه ليرحم بها عباده يوم القيامة.

ب. التوسط بين التضييق والاتساع :

وتظهر هذه الدلالة في الآيات التي جاءت محتوية على صفتين للمفاضلة لا على صفة واحدة بين طرفي التفضيل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[1]. إذ تضمّن صفتين هما: الحُسْن والخَلْق، وقوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾[2] الذي تضمّن صفتين هما: السرعة والحساب، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾[3] متضمنا صفتي السرعة والمكر، وهذا التوسّط بين التضييق والاتساع يعني امتناع التجنيس أولا، وعدم استعمال (خير) ثانيا.

جـ. الاتساع: وتظهر هذه الدلالة في الآيات التي ورد فيها اسم التفضيل (خير) على تنوع الاستعمال القرآني لهذا الاسم، سواء كان نكرة مخصصة أو غير

(١) المؤمنون ١٤.

(٢) الأنعام ٦٢.

(٣) يونس/٢١.

مخصصة أو معرفة، إذ إنه لا يدل على صفة واحدة بعينها، وإنما يحتوي –ضمناً- على كل الصفات الإيجابية، مما يفسح المجال للفكر لاختيار ما يشاء منها، زيادة على الصفة الأساسية التي تكون لأحد طرفي التفضيل، نحو: خير الغافرين، وخير الحاكمين، وخير الراحمين... إلخ. فهذه تدل على أن أحد طرفي التفضيل يتصف بهذه الصفة دون الآخر مضافاً إليه ما تسعه دلالة اسم التفضيل (خير) من صفات إيجابية تليق بالمفضل من باب الحسن.

وبعد، فإن اسم التفضيل (خير) قد احتوى على دلالة وخصوصية لا تكون لغيره من أسماء التفضيل الأخرى، ولهذا فإن استعمال هذا الاسم لا يكون اعتباطا في اللغة أو دون معايير خاصة به، وعسى أن يكون ما جاء في هذه الإطلالة على اسم التفضيل (خير) في القرآن الكريم، وسيلة للاستعمال اللغوي السليم، لأسماء التفضيل بعامة، ولاسم التفضيل (خير) بخاصة، وأن تكون قد أنبأت عن صورة من صور الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

* * *

قائمة المراجع :

- **أبنية المشتقات ووظائفها في شعر الأعشى-** صلاح شعبان، دار الثقافة العربية، ط١، القاهرة ١٩٩٠.
- **أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية** – فوزي الشايب، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ١٩٨٣، إشراف أ.د رمضان عبد التواب.
- **الأصول في النحو-** محمد بن سهل ابن السراج، تحقيق عبد الحسين الفتلي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦.
- **أفعل التفضيل وأحسن التمثيل في محكم التنزيل -** خضر موسى حمود، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، لبنان، سنة النشر ٢٠٠٥.
- **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك -** أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن هشام، الأنصاري. تحقيق ح.الطافوري، ط١، دار الجيل، بيروت١٩٨٩.
- **تفسير البحر المحيط -** أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي معوض، شارك في التحقيق زكريا النوفي وأحمد الجمل، قرظه عبد الحي القرمادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١٩٩٣.
- **تفسير الطبري -** أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ، حققه وعلّق حواشيه محمود محمد شاكر، راجعه وخرّج أحاديثه أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، د.ت.
- **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب -** محمد الرازي فخر الدين الرازي، تقديم خليل محيي الدين الميس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، بيروت، لبنان١٩٩٣.
- **جامع الدروس العربية -** مصطفى الغلاييني، تعليق وتصحيح ومراجعة فتح الله سليمان، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، د.ت.
- **الجامع لأحكام القرآن -** أبو محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، اعتنى به وصحّحه هشام سمير البخاري، إهداء صاحب السمو الملكي الأمير الوليد بن طلال بن عبدالعزيز آل سعود، دار عالم الكتب، الرياض للطباعة والنشر والتوزيع٢٠٠٣.
- **دراسات في علم أصوات العربية -** داود عبده، مؤسسة الصباح، الكويت، د.ت.
- **سر صناعة الإعراب** – أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق حسن الهنداوي، ط٢، دار القلم، دمشق١٩٩٣.

- **شرح ابن عقيل** - بهاء الدين عبدالله بن عقيل ، إعراب وتعليق قاسم الرفاعي ، ط١ ، دار القلم ، بيروت ، لبنان١٩٨٧.
- **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب** - ابن هشام الأنصاري ، ومعه كتاب : منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب لمحمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت١٩٩١.
- **صحيح البخاري** - الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، اعتنى به أبوعبدالله عبدالسلام بن محمد بن عمر علّوش ، ط١ ، مكتبة الرشد ، ناشرون ، الرياض ، السعودية ٢٠٠٤.
- **صحيح مسلم** - الإمام أبو الحسين مسلم ، ط١ ، دار السلام ، الرياض ١٩٩٨.
- **فتح القدير** - محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة ، ط١ ، ضبطه وصححه أحمد عبدالسلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان٢٠٠٣.
- **في ظلال القرآن** - سيد قطب ، الطبعة الشرعية السابعة عشرة ، دار الشروق ، القاهرة١٩٩٢.
- **الكتاب لسيبويه** - أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، ط٣ ، عالم الكتب ، بيروت١٩٨٣.
- **لسان العرب** - جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري. صورة مصورة عن طبعة بولاق ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د.ت
- **المعجم الوافي في النحو العربي** - علي الحمد ويوسف جميل الزعبي ، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د.ت
- **المقتضب** - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، ، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، د.ت.
- **من أساليب القرآن** - إبراهيم السامرائي ، مؤسسة الرسالة ودار الفرقان ، ط٢ ، ١٩٨٧.
- **المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني** - عثمان بن جني ، تحقيق إبراهيم مصطفى و عبدالله أمين ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، د.ت.
- **نزهة الطرف في علم الصرف** - أحمد بن محمد الميداني. ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨١.

* * *